قراءة المدن ثقافيا
المدينة الخليجية نموذجا

د. مصطفى عطية جمعة
Mostafa_ateia123@yahoo.com

هل يمكن أن نقرأ المدن بوصفها نصا مفتوحا ؟ يطرح هذا السؤال رؤية جديدة، نحاول من خلالها قراءة المدينة الحديثة – وكذلك القديمة – قراءة ثقافية، بعيدا عن الوصف التقليدي للمعالم والخطط والشوارع، وعدد السكان وتنوّعاتهم. فقد تقرأ القراءة الثقافية نصا مكتوبا أو مرئيا أو ظواهر اجتماعية أو مشكلات وما شابه، لكن هل يمكن أن تقرأ معمارا يحتوي سكانا، بكل ما فيه من صخب وتفاعلات وعلامات فكرية واجتماعية ونفسية جمعية وأيضا نفسية فردية ؟

تلك هي الإشكالية، وفي هذه الحالة، سننتقل من الرصد الخارجي للمدينة، إلى الغوص في أعماقها بشكل كلي، نبدأ من تأمّل بنيانها، ثم دراسة أحوال سكانها، خاصة أن المدينة بشكل عام فضاء مفتوح، تذوب فيه الروابط والعلاقات الاجتماعية التقليدية على نحو ما لا نجد في الريف أو مضارب البدو أو الأحياء الشعبية.

إذن، القراءة العمرانية الثقافية تعني : النظر إلى المدينة بوصفها عمرانا ماديا حاويا لمكونات ثقافية واجتماعية وفنية وإبداعية كثيرة وعديدة، تتفاعل فيما بينها بالتعايش، الذي وهذا بعد إيجابي لابد من حدوثه بشكل أو بآخر، بحكم التأثير المجتمعي اليومي، كما يمكنها أن تعزز التلاقي بين الثقافات المختلفة وإن كانت أجنبية، كما نرى مع المدن الجديدة في الخليج العربي، إذ قد حوت جاليات مختلفة اللغة والثقافة، عربية كانت أو أجنبية، وهي ظاهرة عالمية، بل هي من ظواهر العولمة، فهناك مدن عالمية استقبلت جاليات أجنبية وعاشت فيها، مثل غالبية المدن الأوروبية، والمدن الرئيسة في الولايات المتحدة ودول شرق آسيا.

وبالتالي تكون الدراسة للمدينة مطبقة لمنظور كلي، يحوي في طياته أبعادا ومحاور كثيرة تساهم في تجلية الواقع المعيش فيها، وفهمه، من أجل دراسة إمكانية التقارب والاندماج بين شرائح سكانها، ضمن أطر العيش المشترك.

فعندما ننظر إلى " المدينة " بوصفها موضوعا في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية ،وأيضا معبرة عن واقع ثقافي وفكري ؛ سنجد أنها بناء معقد التركيب، يقدّم لنا أنماطا ثقافية وقيمية متشابكة ومعقدة، فهي نسق من عادات وتقاليد واتجاهات ومواقف منظمة، وأيضا مشاعر متلازمة، تتناقل عبر تلك المنظومة النسقية ([1]) فمن أهم مميزات المدينة الحديثة اختفاء الروابط العاطفية التقليدية (على نحو ما نرى في القرية أو القبيلة) وظهور روابط اجتماعية جديدة تعتمد على الفردانية والمصلحة الذاتية، وتتسع المدن وتكبر وتتنامى عبر سلسلة من عمليات الهجرة والنمو الحضري، وفق السير مع قوانين معينة تشبه القوانين البيولوجية على نحو ما تفعله الأسماك والحشرات في وسط أجواء من المزاحمة الى ان تتوزع وتستقر في بيئة حياتية مناسبة وملائمة معهم، فالجماعات البشرية تسلك سلوكا مماثلا حين تنشئ أحياءها السكنية ويبدأ سكانها بالتكيف بعضهم مع بعض لتدبير المعيشة ومن ثم تصبح مراكز هذه التجمعات نقطة استقطاب وتجمع للمصالح الاقتصادية المعيشة و الترفيهية التي تمتلكها وتستخدمها الشرائح المرفهة ([2])

والملاحظ في المجتمعات الخليجية في العقود الأخيرة، خاصة في نصف القرن الفائت بعد تفجر النفط، ظهور حاجة هذه الدول للإسراع في النهضة والتحديث، واضطرارها إلى استحضار عمالة أجنبية كثيفة، عبر خطط مكثفة في شتى نواحي التنمية، مما انعكس على الجوانب الاجتماعية، وأثار الكثير من القضايا والإشكاليات

[1]) روبرت بارك، وآخرون، المدينة، (مترجم) وكالة تبر للدعاية والنشر والإعلام، جدة، المملكة العربية السعودية، 1988م،ص9

[2]) د. السيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري بين النظرية و التطبيق مشكلات و تطبيقات . دار المعرفة الجامعية كلية الآداب – جامعة الاسكندرية1997، ص44 وما بعدها

وأيضا التحديات، التي تحتاج إلى المزيد من القراءة والتحليل والتفسير، بهدف الفهم ومن ثم معالجة الآثار والنواتج عنها.

إن أمثال تلك الدراسات ذات البعد الاجتماعي والثقافي، تحتاج إلى منهجية خاصة، تبدأ بالمنهج التاريخي من أجل الوقوف على جوانب التطور العمراني والسكاني والثقافي والإبداعي والفكري للمدينة في تاريخها القديم، وأيضا في بدايات نهضتها الحديثة، ومعرفة الظروف السياسية التي ساهمت في تكوينها، ونرى أهمية الاستعانة بالمنهج " **الظاهراتي في التحليل الثقافي** " والذي ينطلق من أن جوهر العالم يكمن في المعنى الذي يبدعه الإنسان في حياته الاجتماعية، فالناس بحاجة إلى نشر المعاني التي لديهم في العالم الحقيقي، وعبر عملية التبادل الاجتماعي، فيتم تحليل الظواهر المختلفة في الواقع المرئي والمعيش من منظور تأويلي (الظاهراتية التأويلية)، ومن منظور ثقافي بالنظر إلى الثقافات المتعددة والمختلفة التي تتواجد وتشكل الواقع الكائن، فالتحليل الظاهراتي يتوقف عند النقطة التي تنطلق منها العلوم الإنسانية الأخرى، وهو طريقة للتحليل والفهم ([3]).

فإذا نظرنا في الواقع العمراني في مدينة الكويت المعاصرة مثلا، سنجد أنها مؤسسة على نفس موضع الكويت القديمة، فلم تُتَرك الأحياء الشعبية القديمة على ما هي عليه، ويتم التوسع بإنشاء أحياء جديدة خارج المدينة، على نحو ما نرى في جل المدن العربية الكبرى مثل القاهرة ودمشق وبغداد، لنشاهد القديم والجديد متجاورين معا في المدينة المعاصرة، وإنما في الكويت، وعند تأسيسها، وُضعِت خطط عمرانية حديثة منذ مطلع سنوات الخمسينيات في القرن العشرين، شملت إزالة تدريجية للأحياء القديمة، ثم تثمين الأراضي بمعرفة الحكومة، ومن ثم توزيعها من جديد على المواطنين، لبناء بيوت سكنية أو عمارات استثمارية، أما ما تبقى من معالم قديمة

[3]) بيتر برجر والظاهراتية، ترجمة : محمد حافظ دياب، ضمن كتاب : التحليل الثقافي، بحوث مترجمة، مراجعة وتقديم : د. أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009م ،انظر : ص110-118

مثل بقايا سور الكويت القديم أو بعض البيوت والمساجد، فقد تم الحفاظ عليها، وتجديدها، وإن شكلت استثناءات عمرانية في مدينة معاصرة بالكلية.

وقد أدى إلى آثار عديدة على المستوى الاجتماعي والتنموي والتحديث، وباتت هناك مخاوف عديدة على ثقافة أهل الخليج، بحكم زيادة الأجانب – غير العرب – في بلادهم، ووصلت في بعض الدول الخليجية مثل الإمارات العربية المتحدة إلى 90 % من عدد السكان، مما يعني أن مواطنيها باتوا يشعرون بغربة في بعض أحيائها وضواحيها، وهم يشاهدون العمالة الأجنبية كثيفة العدد، بكل ما حملته معها من عادات وتقاليد لا تتناسب بأي حال مع ثقافة البلد العربية الإسلامية، خصوصا إذا كان بلدا لا يزال في مدارج النهضة، مما يجعله غير قادر على احتواء الوافدين إليه، ودمجهم ثقافيا واجتماعيا.

وفي منظور علم الاجتماع فإن تلك الآثار والظواهر المرتبطة بها تعبر عن نسق دائب التغير وليس بالنسق الاجتماعي المتصف بالجمود المطلق، وتأخذ في الحسبان عوامل الزمان والمكان والثقافة ([4]) فظاهرة التحضر Urbanization هي نتاج لعملية اجتماعية Social Production ضمن أشكال أو كيانات مكانية ([5]). مما يستدعي رؤية مهمة، تتصل بالمنهجية العلمية التي ينبغي اتباعها في دراسة تلك التطورات الاجتماعية والعمرانية، ألا وهي مراعاة خصوصية المجتمعات الخليجية العربية، ومن ثم عدم استعمال الرصيد المعرفي الناشئ لعلوم الاجتماع والثقافة والإثنوغرافيا المتكون في المجتمعات الغربية، لأن النظريات والأطر الفكرية Paradigms تكون متأثرة بالعوامل الاجتماعية والثقافية والتاريخية في المجتمع ([6]). مع الأخذ في الحسبان أن المجتمعات الخليجية بشكل عام منفتحة اجتماعيا، بحكم

---

[4]) W. Buckley, Sociology and Modern Systems Theory , Englewood Cliffs, New Jersey:Prentice-Hall,1967,p43

[5]) Ibid .p51

[6]) د.محمد الذوادي، المقاربة العمرانية الخلدونية للتغير الاجتماعي ونظيراتها لدى رواد علم الاجتماع الغربي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو – سبتمبر 2010م، ص163

موقعها الجغرافي ومجاورتها لأقاليم عديدة، وبحكم عمل غالبية أهلها، منذ القدم في حقبة ما قبل النفط، بالتجارة والصيد والغوص على اللؤلؤ، ومن ثم ارتحالهم إلى دول عديدة مثل إيران والهند والشواطئ الشرقية لإفريقيا؛ فكانت أكثر تواصلا مع الشعوب الأخرى، وتقبلا وتأثرا.

فلو نظرنا إلى تركيبة المدن الخليجية المعاصرة، من خلال مدينة الكويت مثلا بضواحيها وامتداداتها، سيمكننا أن نقرر أن الكويت الدولة هي نفسها – أو تقريبا – الكويت المدينة، بالنظر إلى صغر حجم مساحة المعمور في الكويت (في حدود 5%)، وقلة عدد السكان (حوالي ثلاثة ملايين ونصف نسمة)([7]) وسنجد أنها تحوي : بعض المجاورات القديمة (الأحياء الشعبية)، عمارات وفلل للسكن الأجانب والوافدين، أحياء وضواحي للسكان المحليين. والملاحظ أن تلك الأحياء والضواحي تحوي العمالة الآسيوية العازبة في تجمعات خاصة بهم، وأخرى تحوي العمالة العربية بأسرهم، وثالثة تحوي السكان المحليين، وبالطبع يمكن أن نجد تداخلا بين الجنسيات في هذه الأحياء، ولكن نظرتنا تعتمد على الأغلبية القاطنة، مع الأخذ في الحسبان كثرة الجاليات وتنوعها واختلافاتها الكثيرة : لغويا وثقافيا ودينيا وفي تقاليدها وملابسها، ومأكولاتها، وعادات الوافدين منهم، ومستواهم المعرفي([8]).

وبذلك نصل إلى إجابة السؤال المتقدم، بتأكيد أهمية الدراسة الثقافية والمعرفية لواقع المدينة الخليجية، وهي إجابة تتصل بدراسة تبدلات العمران في المدينة الخليجية الحديثة ونهدف إلى دراسة التغييرات الحداثية في بنية المجتمع الخليجي

---

[7]) وصل عدد سكان دولة الكويت في 30 يونيو 2012 (حسب الادارة المركزية للإحصاء) الى 3,268,431 نسمة تقريبا منهم 1,128,381 كويتيين والباقي من الوافدين والاجانب ويتركز معظم سكان دولة الكويت في مدينة الكويت وضواحيها وبخاصة في المناطق المحاذية لساحل الخليج العربي . البوابة الإلكترونية الرسمية لدولة الكويت،
http://www.e.gov.kw/sites/kgoarabic/portal/Pages/Visitors/AboutKuwait/KuwaitAtaGlane_Population.aspx

[8])د.باقر النجار، البنية الثقافية والاجتماعية للمدينة الخليجية في الحقبة النفطية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل –يونيو 1996م ،ص80، 81

على المستوى الاجتماعي والثقافي والإبداعي، وتنهض مدينة الكويت لتكون نموذجا معبرا عن تلك التغييرات، خصوصا أن الواقع السكاني والاجتماعي يتشابه كثيرا في دول الخليج العربي .

ونقصد بالواقع الثقافي مختلف الأنشطة والإبداعات والتمثلات الثقافية، التي تزيد من الفعالية والديناميكية في ثقافة المجتمع الواحد، مع الأخذ في الحسبان التأثيرات الثقافية الحادثة بسبب وجود جاليات عربية وأجنبية في المجتمع الكويتي المعاصر، تتفوق في مجموع عددها على عدد السكان الوطنيين. ومن المهم التركيز على التفاعلات المستجدة في الساحة الثقافية الكويتية، في العقد الأخير، خصوصا بعد سقوط نظام صدام حسين في بغداد(2003م) وقد شكّل هاجسا أمنيا وسياسيا قبل ذلك، ومن ثم حدثت طفرة عمرانية كبيرة في الكويت، تمثلت في ظهور الضواحي والأحياء الجديدة، وهدم العمارات والبيوت القديمة، وبناء عمارات وفيلات وتجمعات جديدة، وزيادة ملحوظة في المراكز التجارية، وأيضا في دور السينما والمسارح، ناهيك عن الطفرة الهائلة في وسائل الاتصال، والقنوات الفضائية المحلية، وتضاعف الصحف اليومية : العربية والإنجليزية، وزيادة الكتب المنشورة.

كما رأينا نزعة الأمركة، وتعاظم الفردية، والإيمان بقيم الليبرالية والديمقراطية، وفي نفس الوقت، زيادة انعزال الثقافة الوطنية / الكويتية المحلية، وقلة تفاعلها مع الجاليات الأخرى، وقلة الأنشطة الثقافية المساعدة على الاندماج بين الجاليات الوافدة وبين السكان المحليين، وإن كانت تزيد مع الجاليات العربية، بحكم الروابط القومية (اللغة والدين والعادات والتقاليد والمشترك التاريخي والثقافي).

وفي الوقت نفسه، لا تزال معدلات القبلية (التعصب والولاء) كما هي، خصوصا في مناطق تجمعات القبائل ذات الأصول البدوية، ونفس الأمر نلاحظه في التجمعات السكانية ذات الأصول الحضرية، خاصة أن الانتخابات النيابية عززت الروابط القبلية، وظهور ما يسمى بنواب الخدمات، على حساب التيارات السياسية والفكرية التي أصيبت بالضعف أو تراجعت فعالياتها وتأثيراتها لعوامل عديدة.

ومن هنا، تكون النتيجة، أن المدينة الخليجية المعاصرة تبدلت وتطورت على المستوى العمراني، وتنوّعت في سكانها، وامتدت في مساحاتها وضواحيها، ولكن هناك إشكالات ثقافية واجتماعية تواجهها، أبرزها عدم الاندماج لتلك الجاليات في الواقع الثقافي للمدينة الخليجي، وانكفاء كل جالية على نفسها، وكأنها تعدّ نفسها امتدادا للوطن الأم، أكثر من التواصل مع المجتمع الجديد، بالرغم من وجود أجيال متعددة لأبنائها في الخليج، فقد نجد الأب والأبناء والأحفاد معا.

مما يستتبع ضرورة النظر في اندماج المجتمع والجاليات به، عبر المزيد من البرامج التعليمية، التي تنمي الإحساس بالانتماء للمكان، وأنه جزء من تكوين الذات، وليس مجرد مكانا مؤقتا للعمل.

وفي هذا الصدد، من المهم النظر إلى الثقافة والإبداع بوصفهما خندقين للتلاقي، وعنوانين على التحديات، وأنهما معبرانِ عن ظهور قواعد متعددة ومهيمنة في المفاهيم. فكلما أمعنت ثقافة في وضع مسافة بينها وبين ثقافة أخرى، خرقت بذلك ثقافتها وعمقت الهوة / الثغرات، وأصبحت ريشة في مهب الصراعات، خصوصا إذا اتخذت أبعادا ثقافية أو اجتماعية أو عنصرية، فكلما اتسعت الأنشطة الثقافية والفنية والعلمية في المدينة، زاد ذلك من اندماج الوافدين إليها، وقدموا إضافات وإبداعات ستساهم بلا شك في الارتقاء والتحضر في هذه البلدان.

بجانب دراسة وتحليل الظواهر الثقافية المتجلية في المدينة الخليجية المعاصرة، والتي تنشرها كل جنسية / ثقافة / جالية، وتتبدى في تجمعاتها أو وسائل تعبيرها المختلفة.

أيضا، يجب بحث قواعد التلاقي على مستوى الجاليات والجماعات العربية التي تمثل دائرة أولى ومحورية بالنظر إلى ثقافة الكويت العربية الإسلامية، ثم على مستوى ثقافات الجاليات الأخرى بالنظر إلى عددها، ومدى تقاربها مع ثقافة المجتمع، فالجاليات الآسيوية (الباكستانيين والأفغان والماليزيين) وكذلك الجاليات الإفريقية غير العربية، يغلب عليها أنهم مسلمون، وبالتالي هناك أنشطة ثقافية عديدة يمكن أن يلتقون فيها، ويحققون الاندماج والتواصل.

ويمكن القول إننا في حاجة إلى قراءة مدننا ثقافيا واجتماعيا وإثنوغرافيا، بل نقترح أن نقدم سردا أدبيا عن كل مدينة، خاصة إذا عشنا فيها سنوات، وعايشنا سكانها وأحداثها وتقلباتها عن كثب، وساعتها سيكون نصا أدبيا جديدا، يشمل تأريخ الذات في علاقتها بالمكان / المدينة، وتطوراتها، وتغيرات سكانها، وثقافتهم. فما أجمل ما يخطه الإنسان عن ذاته في تفاعلاتها مع ما حولها !